قصة قصيرة مترجمة

قصة: مجلس القرية

قصة للمنشئ بريم تشاند *
ترجمة: د. قمر شعبان الندوي**

كان الشيخ جمعان والعمدة ألكو صديقين حميمين؛ يزارعان ويقارضان، ويثق بعضهما بالبعض الآخر كل الثقة. ولما قصد الشيخ جمعان للحج استودع منزلَه العمدةَ ألكو. وكلما كان يسافر ألكو يستودع منزلَه الشيخَ جمعان. لا كانا نديمين، ولا كانا من ديانةٍ واحدة، ولكنهما يماثلان في الأذواق والأفكار؛ وهذا هو أساس الصداقة والمودة.

ارتبطا بهذه الصداقة الحميمة مذ كانا تلميذين على الشيخ جمعراتي والد جمعان، الذي لقد كان خدمه ألكو خدمةً ألقى فيها عصا السنوار. وما كان ألكو في كل هذه الخدمات سوا تلميذٍ بارٍّ رشيدٍ. وكان والده رجلا أرستقراطيا؛ يفضّل احترام الأستاذ، وخدمته على تلقي العلوم، والالتزام بالمواد الدراسية، وكان يقول دائما: "لابد من دعوات الأستاذ المخلصة، وتمنياته الطيبة؛ فإن كل ما يحصِّل التلميذ من الترقية والشهرة لا يحصّلها إلا بفضل مباركات الأستاذ". فكان ألكو مقتنعا بمباركات أستاذه كل الاقتناع؛ لأنه لم يكن قطُّ؛ جادًّا ومُجِدًّا في دراسته. ولم يكن في نصيبه شيء من العلم. وأما الشيخ جمعراتي فكان يؤمن بأن توبيخ التلاميذ أنفع من

---

* المنشئ بريم تشاند (Munshi Prem Chand) ؛ هو الكاتب والروائي الهندي المعروف بـ"*إمبراطور الرواية في الهند*"، خلف أكثر من ثلاث مئة قصة قصيرة، إضافة إلى العديد من الأعمال الروائية والنقدية البارزة، عاش خلال الفترة مابين : (٣١/ يوليو ١٨٨٠-٨/ أكتوبر ١٩٣٦م)، ومن أعماله البارزة: رواية "غودان" باللغة الهندية التي تم نقلها إلى العربية بعنوان: القربان، وسوز وطن، وقصة: "شطرنج کے کهلاڑی" التي تم نقلها إلى العربية بعنوان: "لاعبا الشطرنج" وغيرها من الأعمال.

** أستاذ اللغة والأدب في قسم اللغة العربية بجامعة بنارس الهندوسية، فاراناسي بالهند، وهو من الكتاب، والمترجمين البارزين في الهند. Email: q.shaban82@gmail.com

المباركات؛ فكان يمارسه مع ولده جمعان كل الممارسة. وذلك ما آتى أكلَها اليوم؛ حيث أن الناس من جميع أنحاء المنطقة راحوا عالةً عليه في حاجاتهم الإدارية والكتابية والقضائية والبريدية. وكان كُتَّاب محكمة التسجيل، ومدير البريد، ورئيس المخفر؛ لايجرؤ أحد منهم على توقيع الملفات، ومسوَّدات المبايعات وسندات الرهان من دون أن يراجعها الشيخ جمعان. فإن كان العمدة ألكو بارزاً بثروته المالية والعقارية، كان الشيخ جمعان، أيضا، محترماً لما كان يمتلكه من الثروة العلمية الخالدة.

وكانت للشيخ جمعان خالةٌ أرملةٌ عجوزٌ، تمتلك بعض المزارع، وما كان لها من يرثها؛ فقد استولى جمعان على أغلب مزارعها من خلال الوعود الزائفة والتسجيل لصالحه. وظل يداريها ويداهنها ما لم يتم التوقيع على مستندات الهبة. وكان يعتني بها كل الاعتناء، ويقدم لها ألوانا من الأكلات والأطعمة. ولكنه، بعدما تم التوقيع، تغاضى عنها كل التغاضي إلى أن جعلت زوجته تبخس من احتياجاتها من الطعام والشراب: "ماذا تريد العجوز مقابل فدان ونصف فدان من الأرض، لاتسيغها حبات من الخبز من دون عدس وإدام، فإن كل ما هضمته العجوز من أموالنا كان بإمكاننا شراء مساحات كبيرة من ضياع القرية بها". لقد عانت الخالة الأرملة هذا الوضع المقلق بضعة أيام مقبلة، ثم شكت لهذا الوضع العصيب إلى الشيخ جمعان؛ الذي كان رجلا هادئا مسالما، فلم يتدخل في شؤونهما أيما تدخل، فتصبرت الخالة أياماً أخر، ثم قالت للشيخ جمعان ذات يوم: "بُنيَّ، لايمكنني العيش معكم؛ آتني نصيبي من المال، ولسوف أحضِر طعامي بنفسي".

رد عليها جمعان بجفوة: "من أين لي الروبيات لأعطيكها"؟ ففاهت الخالة بانزعاج وتذمر: "هلا أحتاج إلى ما أتبلَّغ به من لقمة العيش"؟

رد جمعان وكأنه مظلوم: "بلى، إذن، امتصّي دمائي، من كان يدري أنك سوف تعيشين حياة الخضر عليه السلام"! وما كان بوسع الخالة العجوز أن تسمع خبر موتها؛ فعيل صبرُها، وتهددت برفع قضيتها في مجلس القرية؛ فتبسم الشيخ جمعان تبسم القانص الذي يرى الظباء تتورط في شباكه، ونطق: "لابد لك من رفع قضيتك أمام مجلس القرية، ولابد من تسوية هذه القضية؛ فإنني أيضا لا أحب الشجار كل يوم".

وما كان الشيخ جمعان من الذين يخافون قضاء مجلس القرية، لأن سكان القرى المجاورة على بكرة أبيهم كانوا مدينين لمنه وكرمه؛ فمن ذا الذي يتجرؤ على معارضته؟ ومن ذا الذي يتجاسر على مواجهته؟ وليس أعضاء مجلس القرية ملائكة السماء. فطبعا سوف تكون العجوز نفسها فريسةً لمرافعتها أمام المجلس في النهاية.

وظلت الخالة تطوف بعدئذ حول القرى المجاروة أياما عديدة، تحمل على كتفها الحطب، وقد أصبحت شاحبة نحيفة، لاتطيق أن تمشي خطوات، ولكن تسوية قضيتها كانت لازمة، وكان الشيخ جمعان كامل الثقة بقوته، وغلبته، وفصاحة لسانه، فلم يذهب إلى أحد مستشفعا ومتظلما.

وقد بلغت الخالة العجوز في العويل والنحيب مبلغهما، ولكن لا أحد مال إليها، ولا اقتنع ببكائها، ولاذاب قلب على نحيبها؛ بل زاد الطين بلةً أن بعضهم رماها باللؤم، واستهجنها بكبر السن؛ أن العجوز تكاد تموت؛ ولكنها رغم ذلك تتطلع إلى البذخ والترف: "كلي واشربي، وتعبدي

الله تعالى في هذه السن المتأخرة من العمر. وعلاوة على ذلك أن الأوغاد الخسيسين منهم خاضوا يستهزئون من العجوز، ويضحكون أشعارها البيضاء، وينكبون على شماطة شعرها، وسمعها الثقيل الأصم، ولم يكن ثمة من يترحم على حالها، ويتألم لألمها. وما أقل من أنصت لشكواها مسلّيا إياها، ومستأنسا بها. حتى وصلت العجوز في نهاية المطاف إلى العمدة ألكو، وألقت عصاها متنفسةً الصعداءَ، مستنجدةً: "بُنيَّ، لطفاً، تفضل بحضورك مجلس القرية".

ردَّ ألكو دون اكتراث: "لماذا تريدينني في مجلس القرية يا خالة"؟ ولسوف يحضرها سكان العديد من القرى المجاورة". فاهت الخالة بارتجاف: "لقد رافعت قضيتي إلى معظمهم، والله أعلم من سيحضرها، لقد انتوى مولائي السيد أن يحضرها بعدما سمع شكواي، وأعتقد أن السكان الآخرين أيضا سوف يحضرونها".

رد ألكو: "سوف آتي، ولكنني لن أتكلم شيئا"، فسألت الخالة: "لماذا يا بُنيَّ؟ ردَّ ألكو بنوع من التعامي: "لا أستطيع أن أجيب، كلنا أحرار، وإن الشيخ جمعان صديقي القديم، فلن أستطيع أن أعارضه".

إذ ابتدرت إليها الخالة ناطقة: "بُنيَّ، ألا تقول الحق، خوف صديقك"؟ وما أقل من لايخاف في الحق لومة لائم، لقد أعيى العمدة الرد على هذا السؤال، ولم يتجرأ على رفضه أيضا.

أقيمت مجلس القرية مساء ذلك اليوم في ظل دوحة؛ لقد كانت فُرشت الحصر، وأُشعِلت النارجيلات، وحضِّرت مضغة التنبول، وكانت كل هذه النزل، والضيافات من قبل الشيخ جمعان، وهو ذاته كان منغمسا في تدخين النارجيلة مع العمدة ألكو على كثب. وكان يرحب بكل وارد مع تحية بلطف. ومن الغريب جدا، أن عددا قليلا فقط من الأثرياء الأكارم حضروا المجلس،

وأما الجماهير فقد كانوا حضروها أفواجا وجماعات من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم؛ ظنا بأن مجلس القرية هذه, ليست إلا وليمة من الولائم الفاخرة.

وبعدما تجمهر الحشد الكبير, وبلغت فعاليات الحكم أوج الهدوء, والصمت, والكمال, انتهضت الخالة العجوز تخاطب الحضور: "يا أعضاء مجلس القرية! لقد مرت ثلاثة أعوام على ما وهبتُ سائر ممتلكاتي, وضَياعي لابن أختي جمعان بالمكاتبة؛ ولعلكم تعرفونه جيدا, وقد كان وعد جمعان بتوفير النفقات من الأكل والملبس مدى حياتي, لقد قضيتُ عاماً وبضعةَ شهورٍ بالنحيب والعويل؛ ولكن, لايمكنني الآن أن أتصبر أكثر, فإنهم لايعطونني ما أقتات به إلا بالذل, وبشق النفس, وإنني أنا الأرملة المسكينة, لا أقدر على مرافعة القضية في المحاكم والمخافر, وليس لي في مثل هذه اللحظات الحرجة العصيبة من أقاسمه همومي سواكم يا معشر أعضاء المجلس, فإنني مستعدة لامتثال بما تحكِمون, فآخذوني إن أخطأت, ونبهوا جمعان إن كان هو المسيء والمخطئ, فإنه لايتقي دعوة المظلومة البائسة".

لفظ رام دهانو مسرا-وهو الذي لقد انتزع الشيخ جمعان العديد من عماله وأجرائه-: "قرر من تتخذه الحكم لهذه القضية". فألقى الشيخ جمعان نظرةً خاطفةً على الجمهورِ, فوجد نفسه فيمابين معارضيه, فنطق بجسارة: "لتتخذ السيدة خالتي المحترمة الحكَمَ من تشاء, ولست معترضا عليها".

فاهت الخالة بصوت جهوري عال: "يا عبد الله! لم لا تعلن أنت عن أسماء الحكم"؟ ألقى الشيخ جمعان نظرة ساخطة على العجوز, ناطقا بغضب: "لاتجبريني على التكلم, واتخذي من شئتِ الحكم".

لقد أدركت الخالة معنى اعتراضه, فلفظت: "بُنيَّ, اتق الله؛ لن يبيع أحد ضميره من أجلي, هل معظم الحاضرين أعداء لك؛ دعهم جميعا, هلا تثق بالعمدة ألكو"؟

لقد تهلل الشيخ جمعان فرحا بهذا الاقتراح, ولكنه تفوه بكبح جماحه: "لا بأس بالعمدة ألكو؛ فإن مثله كمثل رام دهانو مسرا, فإنني لست بعدو لهما", بدأ العمدة ألكو يتذبذب بين هذا وذاك, ولم يكن يريد الوقوع في هذه الورطة, فقال متغاضيا: "أمي العجوز, أنت تدرين جيدا أنني أنا والشيخ جمعان صديقان حميمان من قديم الزمان", فردت الخالة عليه: "بُنيَّ, لايبيع أحد ضميره من أجل الأصدقاء؛ فإن قضاء الحكَم هو قضاء الله تعالى, وإن كل ما ينطق الحكم ليس إلا ما يُنطقه الله".

فكان لابد للعمدة ألكو من أن يصبح حكما, ففعل. وإذا برام دهانو مسرا بدأ يشتم العجوز. ثم خاطب العمدة ألكو: "أيها الشيخ جمعان, لا شك أننا صديقان منذ قديم الزمان, وكلما دعت الحاجة, بتنا متضافرين ومتعاضدين مع بعضنا البعض؛ ولكنك الآن لست صديقا لي, كما أنني لست صديقا لك, فإن المسألة هذه اللحظة هي مسألة الحق والعدل. لقد حكت الخالة المحترمة قصتَها لأعضاء المجلس, فاحكِ أنت أيضا ما يخطر ببالك".

انتهض الشيخ جمعان في أبهة وخيلاء مخاطبا الحضور: "يا أصحاب مجلس القرية! إن خالتي بالنسبة إليَّ ليست إلا بمثابة أمي, فلا آلو جهدًا في العناية بها. اللهم نعم, ثمة بعض الشجار فيما بين النسوة رغم أنفي, فإنها من سجاياهن, ولكنني لست قادرا على منح النقود المالية إياها شهريا, فإن الحضور يعلمون جيدا ماهي ظروف الزراعة؟, ورغم كل ذلك, إن حكم القضاء على الرأس والعين".

وكان العمدة ألكو كثير الاختلاف إلى المجلس, وكان خبيرا بالقانون أيضا؛ فبدأ يحاكم الشيخ جمعان، وكل سؤال من الأسئلة المطروحة له لم يكن أقل من المطراق على قلبه، وكان رام دهانو مسرا, ورفاقه يهنؤونه على سائر هذه الاستجوابات, وأما الشيخ جمعان فكان حائرا ومبهوتاً من أجل كل هذه التساؤلات:"كان العمدة ألكو, قبل هنيهة, يتجاذب معي أطراف الحديث هاشا باشا, وفي غضون دقائق ولاغير, لقد انقلبت الأمور, فطفق يزيح الستار عن كل سر من أسراري؛ يا لها من صداقة الرجل ووفائه! كان رام دهانو أفضل منه, فإنه لم يكن مطلعا على حصاد تلك المزارع, ومصاريفها, فإن صديقي الحميم الوفي هو الذي قلَّب الأمور كلها ظهرا على عقب".

انتهت المرافعة, وحكم العمدة ألكو في أسلوب حادٍّ ومتغلب, تأمل معظم أعضاء المجلس في هذه القضية بكل جِدٍّ: "أيها الشيخ جمعان إنك أنت المتعدي, إن حقولَك دائما تدر منافع طائلة, فعليك أن تُعطِيَ الخالة المحترمة راتبَها الشهري, ولا مفرَّ من ذلك, وإن لم ترض بذلك ستُلغَى مكاتبة الهبة".

أنصت الشيخ جمعان لحكم القضاء إنصاتا, وصار مُبلسا, وبدأ يتمتم: "هذه هي الصداقة اليوم, فمن يثق بصديقه يذق مرارة الصداقة, هذه هي تقلبات الحياة, لو لم يكن في الدنيا بائعو الضمائر أمثالهم لما تفشى فيها الطاعون والجائحة؛ فإن كل ذلك جزاء هذه المكايد والمكر".

ولكن رام دهانو مسرا, وفتح خان كانا يهنئانه على هذا الحكم, ويتهللان بشرا :"يا لها من مجلس القرية, وقضائها, وعدلها, وإنصافها؛ ويا لها من المجلس التي لقد ميزت الخبيث من

الطيب!. وإن للصداقة موضعها, ولابد من إحقاق الحق, وإبطال الباطل, ولازالت الدنيا باقية بفضل هؤلاء الأمناء, الصادقين, المحقين؛ وإلا لكانت تحولت إلى الجحيم منذ زمان.

لقد اجتث هذا الحكم جذور صداقة الشيخ جمعان والعمدة ألكو, ولم تستطع تلك الدوحة أن تصمد أمام موجة بسيطة لطوفان الحق, والصدق, والأمانة. وإنهما لازالا يقابلان, ويجالسان بعضهما البعض, ولكن الجروح التي أصيب بها قلب الشيخ جمعان لم تندمل بعد, فكثيرا ما تثور ثائرته غضبا للانتقام.

ومن طريف المصادفة, لقد سنحت له فرصة الانتقام عاجلا غير آجل, لقد كان رام دهانو مسرا اشترى ثورين من سوق باطيسر العام الماضي, وإنهما كانا من أفضل أنواع الثيران الجميلة والرائعة, باتا مهوى أفئدة سكان القرى المجاروة إلى شهور طوال. ومات أحد هذين الثورين بعد شهر من انعقاد مجلس القرية هذه, فقال الشيخ جمعان لأصدقائه:"هذا جزاء الغدر. وصحيح, أن الإنسان يتصبر؛ ولكن الله يرى كل شيء, فظن العمدة ألكو أن جمعان هو الذي سممه فمات. وكانت زوجته تظن أن بها سحرا وعينا. وذات يوم, لقد تخاصمت على ذلك زوجة العمدة, والسيدة فهمينه زوجة الشيخ جمعان, وبلغتا من المحاجة, والتشدق والتهذر والمحسنات البيانية والبديعية مبلغها, فأطفأ كل من جمعان وألكو نيران غضب زوجتيهما بالزجر والتوبيخ.

ثم بات الثور الواحد بلاعمل, بحث عن ثورٍ مثله في الأسواق فلم يجد, حتى أراد أن يبيعه. وكان في القرية تاجر اسمه سامجو, يشتغل بعربة الثور, يحمِّل عليها السكر الأحمر, والسمن من القرية إلى السوق, ويحمِّل الزيت والملح من السوق ويبعهما في القرية. لقد أعجبه ذلك الثور,

فأراد أن يشتريه، لكي يتسنى له التجول بين القرية والسوق ثلاثة أشواط كل يوم، فإن ثوره هـذا لا يستطيع أن يتجول بين السوق والقرية إلا مرة واحدة، فاشترى ذلك الثور، وشغَّله في العربـة، وحدَّدَ مدةَ شهرٍ لدفع ثمنه، وكان العمدة نفسه بحاجة إلى ذلك، فلم يبال بالثمن.

وبعد أن وجد سامجو ثورا جديدا، شغّله مـن دون رفـق فـي سـياقة العربـة بـين السـوق والقرية أشواطا وأشواطا مثنى وثلاث ورباع من دون أن يعلفه، ويسقيه الماء، إلا مـا علفـه مـن القش. وما إن كلئ الثور بعض ما كلئ، ساقه من جديد بطريقة قاسية مـن دون أن يتركـه ليأخـذ قسطا من الراحة. وعلى جانب، كان يتمتع الثور نفسه بأنواع من الأعلاف، ورغد العيش، والميـاه الصافية العذبة، واللوبياء المقشرة مع القشوش، وأحيانا مع السمن أيام كان في منزل العمـدة ألكو. وكان ثمة من ينظف بدنه صباح ومساء، ويدلكه دلكا، ويدهنه دهنا، ويحك جسمه، فأنى له كل هذه النعمة والهناء لدى صاحبه الجديد. لقد شحب جسمه، واضمحل حاله مـن أجـل العمـل المفرط القاسي. فكلما يرى العربة يتصبب عرقـا، ويهـرب خوفـا، ولايطيـق أن يخطـو خطاهـا إلا بشق الأنفس. وبات الآن من دون لحم، ومـن دون شـحم، نـاحلا، ذابـلا، هـزيلا؛ كأنـه هيكـل مـن عظام، لايستطيع صبرًا على الضرب. وذات يوم، حمَّله التاجر أحمالًا مضاعفةً بعدما أنهكه طـوال النهار، وأمطر عليه السوط ضرباً، فجرى الثور فـوق قدرتـه رغـم أنفـه، جـرى إلـى مـا اسـتطاع أن يجري، فأراد أن يتنفس الصعداء قليلا، ولكن التاجر كان مستعجلا جدا لوصول منزله، فألقى عليه الأسواط مرة تلو الأخرى، ولكن الثور المسـكين لـم يقـدر علـى التخطـي بخطـوات أخـر، فسـقط مغشيا على الأرض، ولم ينهض. لقد ضربه التاجر من جديد ضربا، وانتـزع رجليـه، وأدخـل الخشـب في أنفيه، ولكن الجثة الهامدة لم تتحرك بعد، فظن التاجر أنه مات. ففك عربته من الثور متـأملا

في تدبير سياقتها إلى المنزل. وصاح مستنجدا ومستغيثا؛ ولكن طرق البوادي عند المساء في صمت مدهش، لا داعي بها ولا مجيب! فلم يجد من ينجده، ولم تكن بجواره قرية ولاعمران، فأنزل معظم غضبه على الثور الميت باللؤم، واللعنة: "إن كنت وشيك الموت فلم لم تمت في البيت؟ ولماذا مت هنا في الطريق؟ فمن ذا الذي يسوق العربة من هنا الآن؟".

لقد كان باع أكياسا من السكر الأحمر، وعُلَبًا من السمن بأربع مئة أو خمس مئة روبية، وذلك ما كان في جيبه، وكانت أكياس من الملح محمولة على العربة، فلايمكنه أن يتركها هكذا في الطريق. فاستلقى على العربة ليرتاح من عناء النهار، معتزما على المبيت هنا. ولكنه لم يأخذه النعاس حتى منتصف الليل، يُسلِّي نفسَه بتدخين النارجيلة، والإنشاد، والتغني، والموسيقى. وأحيانا، يشعل النار ليستدفئ بها. وظن أنه لازال ساهرا رغم تغفله عن وجوده، ثم انتبه للوقت صدفة، فإذا بماله لقد سُرق، فسلب فؤاده سلبا، باحثا عنه هنا وهناك بحيل شتى. وألقى النظرة حوله فإذا ببعض علب الزيت أيضا مسروقة، فضرب خده متذمرا ونائحا مع البكاء والعويل، ثم وصل على هذه الحالة المدمرة إلى منزله في الصباح.

ولما اطلعت زوجته على هذه الفاجعة المؤلمة، انتدبت انتدابا، أولا انتحبت كثيرا، ثم أخذت ترمي العمدة ألكو بالشتم والطعن: "باع لنا ثورا مشؤوما أضاع كل ما اكتسبناه طوال الحياة".

لقد مرت على هذه الكارثة شهور طوال، فكلما كان يطلب ألكو ثمن الثور يشتعل عليه التاجر وزوجته غضبا واكفهرارا كالكلاب: "لقد ضاع كل ما ربحناه من التجارة، وأصبحنا كالمساكين المتسولين، ورغم كل ذلك، يطلب منا الثمن؛ وقد آتانا ثورا مشؤوما ميتا، بالغش والخدعة

والكذب, يا له من عديم الحياء! اذهب واغسل يديك بماء كدر, وإن لم تقتنع بذلك خذ ما لدينا من الثيران، وشغّله شهرين بل شهورا مقابل ما شغلنا ثورك شهرا واحدا, وهل تريد على ذلك من مزيد؟"

ولم يكن ثمة من لاينتهز هذه الفرص؟ كان العمدة يتنازل عن طلبه بعد سماع هذا الطعن أحياناً, ولكنه لن يتنازل أبدا عن مئة وخمسين روبية بسهولة.

وذات مرة, اشتعل عليه غضب العمدة ألكو, فاشتد غضب التاجر أيضا, فخرجت زوجته بعصبية وانفعال, وشبت فيما بينهم المشاجرات, والمساءلات, والمدافعات, والمجادلات؛ دخل السيد التاجر بيته, وغلق عليه الباب, إذ تجمع أسياد القرية وأشرافها, محاولين إخماد شجار الخصمين, وتفهيمهما, فأخرجوا السيد التاجر من بيته؛ مسامحين ومسالمين ومصالحين فيمابينهم: لاينبغي الاقتتال, الأفضل أن تُرفع القضية أمام مجلس القرية للحل, فرضي بذلك السيد التاجر, كما رحب العمدة ألكو أيضا بهذا الاقتراح. ثم طفقوا يعدون لإقامة مجلس القرية. وأخذ الخصمان يؤامران ضد بعضهما البعض, تمهيدا للفوز؛ إذ انعقدت مجلس القرية في اليوم الثالث في ظل الدوحة عينها.

ما أشبه الليلة بالبارحة! كانت الغربان متربعة على عروش المحاكم بالحقول في حل القضية: "هل هي مستحقة في حبوب البازلاء أم لا؟"، وقررت أن تحلق فوق السماء بهتافاتها الاحتجاجية ضد الولد الذي كان يحرس الحقول, ما لم يصدر حكم القضاة في حقها.

وكانت الببغاوات أيضا في محاكم قضائها على غصون الأشجار في محاكمة القضية بعنوان: "لايجوز للمرء أن يطعنها بتهمة الجفاء".

ولما بلغت الفعاليات القضائية لمجلس القرية أوجهها, قال رام دهانو مسرا: "لاينبغي التأجيل بعد الآن, وهو يخاطب العمدةَ ألكو: "من ستتخذه الحكَم"؟ رد ألكو بتواضع: "ليتخذه السيد التاجر". فانتهض التاجر سامجو, وقال بصوت جهوري عالٍ: "إنني لأقترح اسم الشيخ جمعان حكَمًا". فلما سمع العمدة ألكو اسم الشيخ جمعان بات مبهوتا ومذعورا, كأن أحدا لطم على خديه اللطمة المعنفة. وكان رام دهانو مسرا صديقا للعمدة ألكو, فسأله: "هل لك اعتراض على هذا الاقتراح"؟ رد العمدة متحسرا: "كلا! ليس لي الاعتراض"! ثم تم اقتراح أربعة أسماء أخرى. لقد كان ألكو خبيرا بأمور المحاكم والقضا, فاختار أسماء الحكم بفحص وتخبر, ثم بقي اختيار رئيس الحكم. وكان ألكو ذا فراسة وخبرة فيه أيضا؛ إذا بغودار شاه, أحد أقارب التاجر سامجو نطق: "أخي سامجو, من ستتخذه أنت رئيس الحكم"؟ قام التاجر سامجو بعنجهية وخيلاء, وقال: "الشيخ جمعان"! فتوجه رام دهانو مسرا إلى العمدة ألكو مستفسرا بلطف: "هل توافق على ذلك أيها العمدة"؟ رد ألكو في أسلوب مزيج من الأسف والتحسر: "بلي, إنني موافق على ذلك بكل تأكيد".

وإن الشعور بالمسؤولية لطالما ينقذ الناس من الضيق والتعصب, ويرشده إلى الصراط السوي.

وكم من صحفي يطعن الوزراء, والإداريين بالنقد اللاذع مع كل الحرية والجرأة, ثم ينخرط الصحفي عينه إلى مجلس الوزراء, وهيئة الإداريين, فيقع في أسلوبه الكتابي تقلب مفاجئ, يُمثِّل الهدوءَ والجدَّ والمتانةَ, هذا هو الشعور بالمسؤولية.

وكم من شاب يافع يكون حرًّا غيرَ مكترث في شبابه! يراه والداه بيأس وتأسف، ويظنانه خائبا فاشلا وسط أعضاء الأسرة؛ ولكن الشاب نفسه بعد وفاة والديه يكون مخلصا ومجدا، وكائنًا واعيا يدرك مسؤوليته كل الإدراك. وهذا الشعور بالمسؤولية، هو الذي يجعل الإنسان متسامحا ومتعايشا وبعيد المدى، كما ويجعله إنسانا متحذرا ومتنبها لكل شيء؛ حتى أنه كلما يتكلم، يتكلم بحذر.

لقد شعر الشيخ جمعان بمسؤوليته العظيمة في تلك اللحظة، وأحس بأنه الآن على منبرٍ عالٍ للعدالة والإنصاف: "إن لساني هو لسان حال حكم الله تعالى، فلا ينبغي أن تتدخل الاعتبارات الشخصية في حكم الله. وإن مثقال ذرة من الظلم سبب ذلي وهواني وخسارتي في الدنيا والآخرة.

لقد بدأت محاكمات أعضاء مجلس القرية، وقد أفصح الفريقان موقفهما عن القضية مبرهنين بالدلائل؛ فشهد الشاهدون، وجادل الحاضرون، ودافع المناصرون عن فريقهم كل الدفاع. وقد استمع الشيخ جمعان إليهم جميعا بآذان صاغية، ثم أصدر حكمه: "أيها العمدة ألكو، والسيد التاجر سامجو، لقد تأمل السادة الحكَم في قضيتكما؛ فلابد للتاجر سامجو من أن يدفع ثمن الثور بكامله، لأن الثور وقت بيعه كان سالما ومن دون مرض، لو كان دفع الثمن وقت شرائه لما تقاضاه العمدة ألكو الآن".

وبعدما صدر الحكم وقف رام دهانو مسرا قائلا: "ينبغي أن يدفع سامجو الديةَ أيضا، علاوة على ثمن الثور؛ لأنه هو الذي قتله ظلما وإرغاما، فقال الشيخ جمعان: "لاصلة له بالقضية الأصيلة"، إذ فاه غودار شاه: "ينبغي بعض التخفيض لسامجو، لقد خسر خسارة فادحة من ذي

قبل، وسبق أنه لقد عوقب على ذلك كل العقاب". فنطق الشيخ جمعان: "لاصلة لهذا الأمر أيضا مع أصل القضية، هذا في خيار العمدة ألكو، إن شاء سامحه، وإن شاء عاقبه". وبعدما سمع العمدة ألكو هذا الحكم، فرح جدا، وانتهض بفجأة مناديا بأعلى صوته: "عاش رئيس الحكم، وعاش السادة الحكم"!

لقد كانت تألقت النجوم والكواكب فوق السماء، كأنها هي أيضا تباركه، وتهنئه على فوزه. وبات يشيد معظم الجمهور بحكم الشيخ جمعان، مع أسمى آيات التهاني والمباركات والتهاليل: "هذا هو الإنصاف والعدل حقا؛ وما ذلك إلا حكم الله وقضاؤه، وجوهره الذي ميز الخبيث من الطيب.

وبعد ساعة واحدة، أقبل الشيخ جمعان على العمدة ألكو، وقال له معانقا إياه: "سيدي، بعدما كنتَ حكمتَ عليَّ، كنتَ عدوا لدودا لي؛ ولكنني أدركت اليوم، أن الإنسان بعدما يتربع على منبر الحكم والقضاء، لايكون صديقا لأحد، ولاعدوا لأحد؛ فإنه عندما يحكم، لايحكم إلا بالقسط، وذلك ليس إلا فضل الله يؤتيه من يشاء. ولقد أيقنت اليوم بأن حكم القاضي هو حكم الله تعالى ولاغير".

وفاضت عينا ألكو فرحا، وقد زال غبار الخواطر، وصارت صداقته الذابلة متوطدةً من جديد. وما كانت هذه الصداقة الآن قائمة على رمال الصحراء، بل باتت ثابتة على أرض الحق والعدل والإنصاف.

..... ***** .....